خصوصية مقام الإمام

بقلم: الدكتور أحمد أديب أحمد

الإمامةُ عندنا واجبةٌ ضرورةً، ولكنَّ الخلافَ على مَن هو صاحبُ الحقِّ بالإمامةِ!! فمَن وجبَ أن يتبوَّأَ هـذا الْمَقامَ العظيمَ لابدَّ أن يكون مُمَثِّلاً لصـــاحبِ الأمرِ، هادٍ للنَّاسِ، قائمًا بالحُجَّةِ لِيَقطعَ الحُجَجَ، بُرهَانُهُ قاطعٌ وَحُجَّتُهُ دَامِغَةٌ، إنْ سألَهُ النَّاسُ إظهارَ الْمُعجِزِ في الفعلِ والقولِ أظهرَهُ مِن غَيرِ عَنَـاءٍ ولا جُهـدٍ، عـالِمًا بمَـا أرادَهُ صـــاحبُ الأمرِ وعاملاً به، عارفًا بتَنزيلِ القرآنِ وتأويلِهِ، جميلَ الخصـالِ، مُنَزَّهًا عن ذَميمِ الصِّفاتِ، فهو الْمِثالُ الصَّـادقُ للحقِّ في جميعِ مَلَكاتِهِ وصـفاتِهِ وخصـالِهِ وأفعـالِـهِ، لهذا فإنَّ ما يميِّزُنا عن غيرِنا في رؤيتِنا لِمَقامِ الإمامةِ يتلخَّصُ بقولِ الإمامِ الصـــَّادِق علينا سـلامُهُ: (مثالُ مَحَلِّ الإمَامِ فِي الأَرضِ مثالُ مَحَلِّ البَارِي فِي السَّمَاءِ، وَإِنَّ الْمُلكَ لاَ يَجُوزُ أَن يَملكَهُ وَيُدَبِّرَهُ إلاَّ وَاحِدٌ، لِقَولِهِ تَعَالَى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا).

ولَمَّا انتشـــرَ الكذبُ والتَّبديلُ والتَّـــحريفُ كانت الحاجةُ ماسَّـــــةً لوجودِ الإمامِ الذي يقطعُ حُجَجَ الْمُـتَـأوِّلينَ وألسـنةَ الْمُـتَـقوِّلينَ بالبرهانِ، فَيَلْتَفَّ حولَهُ الْمُؤمنونَ ولا يُخَالِفُونَهُ، فَتَعُمَّ الهدايةُ ولا يختلفُ الْمُؤمنونَ في أحكامِ الدِّينِ تبعًا للآراءِ والأهواءِ، إذْ عندَهُ علمُ ما يُســـأَلُ عنهُ وَلَدَيهِ الحُجَّةُ على إزالةِ الأوهامِ والأباطيلِ والجهالاتِ والأضاليلِ.

لهذا نصَّبَ اللّهُ تعالى الإمامَ للنَّاسِ، لِيُعَرِّفَهم أصولَ دِينِهم وتعاليمَهُ، وَيُصْلِحَهم ويَهدِيهم. كما يَستحيلُ أن يتركَ الرَّسولُ (ص) التَّبليغَ عنه لأيٍّ كانَ، لذلكَ أمرَهُ تعالى بتنصيبِ الإمامِ بعدَ الإمامِ، ولو جـازَ عليـه تركَ هذا الواجبِ لجازَ عليه تركَ غيرِهِ، والدَّليلُ قول الله عز وجل: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) حيث سـأل سـيدنا الْمُعلَّى بن خُنَيس (ع) الإمام جعفر الصَّـادق علينا سلامُهُ عنه فأجابَ: (أمرَ اللّهُ الإمامَ الأوَّلَ أن يَدفعَ إلى الإمامِ الذي بعدَهُ كلَّ شيءٍ عندَهُ)، وقال علينا سلامُهُ أيضًا: (إنَّ الإمامَ يعرفُ الإمامَ الذي مِن بَعدِهِ فيُوصي إليهِ).

هذا يعني أنَّه مَتَى وَجَبَتِ الرِّسالةُ وَجَبَتِ الإمامةُ، وَمَتَى بَعَثَ اللّهُ رسالةً نُصِّبَ الإمامُ وَصِيًّا، فلا رسالةَ بلا إمامٍ، ولا شَريعةَ بغيرِ حَقيقةٍ، لذلك قال تعالى: (أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِـيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)، وقد رَوَى

سيِّدنا الْمُفضَّلُ بن عمر (ع) أنَّ الإمامَ الصَّادقَ علينا سلامُهُ قال: (يا مُفَضِّل، الأرضُ همُ الْمُؤمِنُونَ، والرَّواسِي هُمُ الأئِمَّةُ).

وإنَّ لأهلِ بيت النُّبوةِ مكانةً دينيَّةً خاصَّةً، فَهُم الذينَ أذهبَ اللّهُ عنهم الرِّجسَ كما هو ثابتٌ من آيةِ التَّطهيرِ: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا)، وهم نفسُ النَّبيِّ كما هو ثابتٌ من آيةِ الْمُباهلةِ: (فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)، وهم أعدالُ الكتابِ كما هو ثابتٌ من حديث الثقلينِ الْمُسَلَّمِ بصحَّتِهِ وتواترِهِ، وهو قولُ سيِّدنا الرَّسول (ص): (إنِّي مخلِّفٌ فيكم الثَّقَلَين: كتابَ اللّهِ وعترتي أهل بيتي)، وقد فرضَ اللّهُ تعالى مودَّتهم كما هو ثابتٌ من آية الْمَودَّةِ: (قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)، وجعلَ الصَّلاةَ عليهم جزءًا لا يتجزَّأُ من الصَّلاةِ على الرَّسولِ لقول سيِّدنا رسول الله (ص): (ما في الْمِيزانِ أثقلُ من الصَّلاةِ على محمدٍ وآلِ محمد، ومَن صَلَّى عَلَيَّ ولم يُصَلِّ عَلَى آلِي لم يَجِدْ رُوحَ الجنَّة)، لذلكَ سُمِّيَ سيِّدنا رسولُ اللّهِ (ص) عندنا إمامًا، وقال عن الحسن علينا سلامُهُ أنَّه إمام، وقال عن الحسين علينا سلامُهُ أنَّه إمام، ولا يُجادَلُ بصِحَّةِ أقوالِ الرَّسولِ (ص) هذه.

وقد وردَتْ كلمةُ (أئمَّة) في القرآنِ الكريم خمسَ مراتٍ، منها لفظٌ محمودٌ دلَّ على الهدايةِ التي تقودُ حتمًا إلى الحقِّ في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ)، وقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)، وقوله تعالى: (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ)، ومنها لفظٌ مذمومٌ دَلَّ على طبيعةِ القيادةِ الفاسدةِ والْمَرجعيَّةِ الضَّالةِ وقُدوَةِ السُّوءِ التي تَجُرُّ أتباعَها إلى دَارِ البوارِ، وهم كبعضِ زعماءِ قريشَ في قوله تعالى: (فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ)، وفرعون وجنودِهِ الذينَ يقودونَ إلى النارِ في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ)، وقد فرَّقَ الإمامُ الصَّادقُ علينا سلامُهُ بين أئمَّةِ الحقِّ وأئمَّةِ الضَّلالِ بقولِهِ: (نحن قومٌ فرضَ اللّهُ طاعَتَنا، وأنتم تأتمُّون بمَن لا يَعذُرُ النَّاسَ بجهالَتِهِ).

ومِنَ الْمُلاحَظِ أنَّ نصوصَ أهلِ بيتِ النُّبوةِ تتَّفقُ بالكاملِ مع البيانِ لأحكامِ الإمامةِ، مُمَثَّلَةً بإمامةِ سيِّدنا إبراهيمَ والرُّسلِ علينا سلامُهُم من بعدِهِ، والتي أَجْمَلَها القرآنُ الكريمُ مُخَاطِبًا رسولَ الولاية إبراهيم علينا سلامُهُ بقوله تعالى: (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)، فاللّهُ تعالى هو الذي أسندَ

منصـــبَ الإمـامـةِ لإبراهيمَ، وكـذلكَ قوله تعالى عن الأئمَّةِ الذينَ جَاؤوا مِن بَعدِ إبراهيمَ حيثُ قالَ: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً)، (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً)، فاستعمل كلمات: (جاعلك، ونجعلهم، وجعلناهم).

فممَّا ســـبقَ نجدُ أنَّهم أئمَّةٌ يَهدونَ بأمرِ اللهِ ويَقودونَ الخلقَ وفقَ التَّعاليمِ الإلهيَّةِ، وما يَعنِينا هو أنَّ أئمَّـةَ أهـلِ بيـتِ النُّبوةِ عـالَجُوا معنى الإمـامةِ كَمَا تَلَقَّوهُ عن إمامِ الأئمَّةِ الإمام علي (م) حيث قال: (اللَّهُمَّ إنَّكَ لا تُخلي الأرضَ مِن حُـجَّةٍ لَكَ عَلى خَـلقِـكَ، ظاهرٌ مَوجودٌ، أو خَافٍ مَغْمُورٌ لِكَي لا تُبطِلَ حُجَّتَكَ)، وقال أيضـًا: (لا يُقاسُ بآلِ محمَّدٍ من هذهِ الأمَّةِ أحَدٌ، ولا يُسـَوَّى بهم مَن جَرَتْ نعمَتُهُم عليـه أبدًا، هم أســـاسُ الدِّينِ وعِمَادُ اليقينِ، إليهم يَفِيءُ الغالي، وبهم يُلْحَقُ التَّالي، ولَهم الولايةُ، وفيهم الوصيَّةُ والوِرائَةُ).

وقـال الإمـام علي زين العـابـدين علينـا ســـلامـُهُ: (نحنُ أئمَّـةُ الْمُؤمنين، وحُجَجُ اللهِ على العالَمِين، وســادةُ الْمُؤمنين، وقادةُ الغُرِّ الْمُحَجَّلِين)، وقال أيضـًا: (نحن خلفاءُ الأرضِ، ونحنُ أولى الْمُؤمنينَ بالْمُؤمنين)، وقال في الصَّحيفةِ السَّجاديَّة: (اللهمَّ إنَّكَ أيَّدْتَ دِينَكَ في كلِّ أوانٍ بإمامٍ أقمتَهُ عَلَمًا لِعِبَادِكَ وَمَنارًا في أرضِـكَ، بَعْدَما وَصـَلْتَ حَبْلَهُ بحَبْلِكَ وَجَعَلْتَهُ السَّبيلَ إلى رِضْوَانِكَ، وافترضْتَ طَاعَتَهُ وَحَذَّرْتَ مَعْصِـيَتَهُ). وقال الإمام الصَّادق علينا سلامُهُ: (لو بَقِيَتِ الأرضُ بغيرِ إمامٍ لَسَاخَتْ). كما قيلَ له: كيفَ يَنتَفِعُ النَّاسُ بالحُجَّةِ الغائبِ الْمَستورِ؟ فقال علينا سلامُهُ: (كما يَنتَفِعُونَ بالشَّمسِ إذا سَتَرَها السَّحابُ).

وهذا يَعني أنَّ أئمَّةَ أهلِ بيتِ النُّبوةِ قد بيَّنوا الإمامةَ كما بيَّنَها سيِّدنا الرَّسولُ (ص) على أنَّها ركنٌ من أركان الدِّينِ لا غِنَى عنه، وبأنَّ الإمامَ مُعيَّنٌ مِن اللهِ ومُعلَنٌ مِن رســولِهِ، وأنَّ مهمَّةَ الإمامِ أن يَهـدِيَ لأمرِ اللهِ، فهو قـائـدُ الأمـَّةِ ومَرْجِعُهـا وقـُدْوَتُها في أمورِ دِينِها ودُنياها، لأنَّهُ الوحيدُ في زَمانِهِ الْمُتَّصِـفُ بالصِّفاتِ الشَّـرعيَّةِ للإمامةِ، والْمُؤهَّلُ الوحيدُ لخلافةِ النبيِّ في أمورِ الدِّينِ والدُّنيا.

نكتفي لعدم الإطالة والله أعلم

الباحث الديني الدكتور أحمد أديب أحمد